بعث اللغة الفارسية الدّرية وبدايات الترجمة من العربية إليها

جهيدة بوجمعة/جامعة وهران

لقد بدأ الفتح الإسلامي لبلاد فارس [1] مع بداية العام الثاني عشر للهجرة. وظلّ المسلمون يقاتلون – فيما يسمّى اليوم بحرب الاستنزاف – إلى أن تمكّنوا من إسقاط الدولة السّاسانية [2] في معركة " نهاوند " عام (21 هـ/641 م) , المعركة التي أطلق عليها اسم فتح الفتوح .

لقد عمل العرب بعد دخولهم بلاد فارس على نشر اللغة العربية , وقامت بالدور الأكبر في ذلك قبيلة تميم التّي كانت أكبر قبيلة عربية في الإقليم [3] , وساعدها في ذلك أنّ الفرس كانوا يقدّسون اللغة العربية بصفتها لغة القرآن , فأصبحت عندهم لغة الدّين والدّولة واندثرت اللغة البهلوية , لغة الحكومة الفارسية البائدة , التّي كان يعاب عليها أنّها كانت تعبّر عن أصوات كثيرة بحرف واحد , فمثلا كان لا يوجد فيها إلاّ حرف واحد للجيم الجامدة والسّائلة والدّال , وحرف واحد للنّون والواو والرّاء , مما كان يوقع أحيانا العلماء أنفسهم في لبس عند القراءة [4] .

وفي الواقع , يعدّ انتشار اللغة العربية في بلاد فارس أمرا طبيعيّا في نظر ابن خلدون الذّي يذكر أنّ لغة الشّعوب الغالبة هي التّي تسود الأمم المغلوبة , " لذلك كانت لغات الأمصار الإسلامية كلها بالمشرق والمغرب لهذا العهد عربية"[5] .

ومع ذلك , فلم تنل اللغة العربية ما ناله الإسلام في الانتشار , فهي وإن كانت قد انتشرت بين رجال الدّين وعظماء الرجال والكتّاب والأعيان والمتعلّمين , فإنها لم تصل إلى عامّة النّاس الذين كانوا من المزارعين والحرفيّين الصّغار وإن كانوا قد ألِفوها و اطمأنّوا لها مع مرور الزّمان , فبقيت البهلوية تستعمل وتتطوّر , ووانتها ظروف ضعف الخلافة العبّاسيّة (132– 656 هـ) الذي سهّل ظهور بعض الدّويلات الفارسيّة ؛ في بلاد فارس وما وراء النّهر [6] مثل الدولة الصّفاريّة (254 – 290 هـ) والدولة السّامانية (261 – 389 هـ) والدولة

الغزنوية (351-582 هـ) التّي استعملت لغة فارسية عرفت باللغة الدّرّيّة وهي اللغة الفارسية التي ظهرت بعد الإسلام , تكوّنت من اللهجات المحليّة المتبقية بعد أن اختلطت وتأثرت باللغة العربية , فهي تعتمد على الخطّ العربي وألفاظ واصطلاحات عربية كثيرة احتاجت إليها للتعبير عن الأفكار الجديدة , ليس بدافع الاضطرار فقط , بل بدافع الرغبة أيضا [7] , فلقد بلغت نسبة الألفاظ العربية فيها أكثر من خمسين في المئة [8] . هذا فضلا عن النّحو والأوزان والقوافي , دعّمها ذوو اللسانين العربي والفارسي , فاللغة الدّرّيّة نشأت في حضانة اللغة العربية ووصايتها [9] . ليس تعبيرا عن التّعصّب والغضب للغة العربية بل للحاجة , فعامّة النّاس كانوا بحاجة إلى الكتابة بلغتهم التّي يتمكّنون منها . ومع انتشار اللغة الدّرّيّة ظلّت العربية في مكانتها العالية والمقدّسة. فالوزير نظام الملك الطوسي (ت 485 هـ) يذكر أنّه " منذ زمان الخلفاء الرّاشدين إلى أيّام السّلطان محمود الغزنوي (388-421 هـ) كانت القوانين والأوامر والمنشورات تصدر بالعربية , وكان استعمال الفارسية فيها يعتبر من أشنع العيوب " , وظلّ نظام الملك يمجّد العربيّة ويدعو السّلاطين إلى اتقانها " لأنّ الله تعالى أنزل القرآن عربيا وكان محمد المصطفى صلوات الله عليه عربيا " [10] .

لقد ارتبط بعث اللغة الدّرّيّة ببداية الشّعر بها , الذّي اختلف المؤرّخون والأدباء في تحديد بدايته , وربطه البعض [11] بالأمير يعقوب بن الليث الصّفار (254 - 290 هـ) يوم عودته إلى إقليم سيجستان [12] , بعد فتحه لمدينة هراة حيث تقدّم أحد الشّعراء ومدحه باللغة العربية فقال :

قَدْ أكرَمَ اللهُ أهْلَ المصْرِ والبلَد بملْك يعقوب ذي الأفضالِ والعَدد
فقد أمِنَ الناسُ محواه وعِزّتــه سِتر مِن اللهِ في الأمصَار والبَلد[13]

ولمّا كان يعقوب جاهلا باللغة العربية , لم يدخل يوما كتاتيب ولا مدارس , التفت وقال : " لماذا يقال لي ما لا أفهم ؟ " . ولمّا كان أميرَ البلاد , عمل على تشجيع الشّعراء على بعث اللغة الفارسية , وكان أولهم الشّاعر محمد بن وصيف الذّي كان قد أنشأ قصيدة لمدح الأمير يعقوب يقول فيها ما ترجمته : " أيها الأمير الذّي يخضع له كلّ أمراء العالم ,

الخاصّة والعامّة , جميعا عبيد له أسرى وموالي وخدّام , لقد كتب في اللوح منذ الأزل أنّك ستمنح حظّا بالملك لأبي يوسف يعقوب ابن الليث الهمام [14] .

والواقع أنّ الشعر الدّي ظهرَ في عهد يعقوب , اعتبر شعرا ناضجا وعلى قدر كبير من الصّنعة , مما جعل البعض يرى أنّ أوّل شعر بالدرية كان قبل هذا التّاريخ بكثير . ويذكر محمد عوفي , وهو أقدم من ترجم لشعراء الفرس , أن أول من أنشأ قصيدة فارسيّة هو أبو العبّاس الماروزي , قرضها ليستقبل بها الخليفة المأمون العبّاسي عند قدومه إلى مدينة مرو عام (193 هـ) وقال :

مهترى گر بكام شير دراست
شو خطر كن زكام شير بجوى

أي ما ترجمته بالعربية :

إذا كانت العظمة في أشداق أسد كاسر فالتمسها من أشداقه, وتقدّم وخاطر [15]

ويبدو أنّ محمد عوفي قد بنى رأيه على ماورد في القصيدة , حيث ذكر فيها الشّاعر مفتخرا :

كس براين منوال پيش ازمن جنين شعر نكفت
مرزبان فارسي راهست أين نوع بين

أي ما ترجمته بالعربية :

لم يسبقني إنسان بشعر كمثل ما قلت منذ أن كانت اللغة الفارسية في الوجود[16]

غير أن الطّبري , يذكر في حوادث سنة ثمان ومائة , ومرة أخرى في حوادث سنة تسع عشرة ومائة , والخبران يتحدّثان عن غزوة الوالي الأموي أسد بن عبد الله القسري لخاقان [17] صاحب الترك , وكيف رجع منها مغلولا , فتغنّى عليه الصّبية من أهل خراسان [18] شعرا فارسيا قالوا فيه :

ازختلان آمذيه برو تباه آمذيه
آوار بار آمذيه بيدل فراز آمذيه

أي ما ترجمته بالعربية :

لقد عدت تائها مشرّدا وعدت جبانا وخائفا [19]

لكنّ علي أكبر فيّاض , يذكر أنّ المستشرق الدانماركي كريستنسن قام بالبحث في هذه المسألة أيضا , ووصلت بحوثه إلى اعتبار يزيد ابن مفرغ الحِمْيَري الذّي يرجع تاريخه إلى أواسط المائة الأولى هجرية , في بداية العصر الأموي هو أول من قال شعرا باللغة الفارسيّة الدّرية , وهو شاعر عربيّ الأصل , وقد غضب عليه الوالي عبد الله بن زياد نظرا لولعه بهجاء بني زياد بن أبي سفيان ﷺ فقبض عليه وسقي نبيذا حلوا فأسهل بطنه وقرنه بهرة وخنزير , وطِيف به وهو على تلك الحال والصّبيان يتبعونه ويصيحون بالفارسية " اين جست ؟ "

أي ما هذا ؟ فيجيبهم :

ابست نبيذ است

عصارات زبيب است

سمية روسبيد است

أي ما ترجمته بالعربية :

إنه ماء وإنه نبيذ وهو عصارات الزبيب وسمية عاهرة فاجرة [20],

ويبدو, أنّ سذاجة الأبيات جعلت كريستنسن يقرر أنّها أول ما كتب بالدّريّة , لكنّنا مع ذلك لا يمكننا أن نأخذ بذلك جازمين وخاصة أنّ بلاد فارس أرض واسعة وموطن الشّعر والموسيقى .

إذا كان الشّعر بالدّرية قد ظهر مع بداية العصر الأموي –كما أسلفنا – فإنّ التّأليف بها ظهر متأخّرا في عهد الدّولة السّامانية حينما فتح أمراؤها باب التّنافس العلمي , فيذكر أنّ أقدم كتاب وصلنا بالفارسيّة الدرّيّة " رسالة درفقه حنفي " الذّي كتبه أبو القاسم محمد السمرقندي المتوفي سنة (343 هـ) أي أنّ تاريخ كتابة هذا الكتاب كان قبل هذا التّاريخ , ثم كانت الشاهنامه المنثورة التّي أمر بكتابتها الأمير أبو منصور محمد بن عبد الرازق , فجمعها له وزيره أبو منصور محمد المعمري وكتب لها مقدمة وكان هذا في عام (346 هـ), وكان سبب كتابة هذه الشاهنامه (كتاب الملوك) أنّ أبا منصور بن عبد الرّزاق كان يدّعي النّسب إلى السّاسانيّين ملوك الفرس القدامى فأراد بهذا العمل أن يكتب ويدوّن تاريخ أجداده , لعلّ هذا يساعده على الإقرار له بالإمارة والتّسلّم له بالولاية [21] .

هذا وقد نشأت التّرجمة من العربية إلى الفارسية مع بداية التّأليف بالفارسية وبأمر من الأمير أبي صالح منصور ابن نوح ابن نصر

الساماني , ترجم الوزير محمد ابن عبد الله البلعمي تاريخ الطّبري وتفسير الطّبري وذلك في عام (352 هـ) , لقد تصرف الوزير في تاريخ الطّبري حيث حذف منه التفاصيل المملة , وقد اشتهرت ترجمته وتُرجمت بدورها إلى لغات أخرى عديدة [22] ومن بين ما جاء في مقدّمة ترجمة تفسير الطّبري أنه " لما جاؤوا بالتفسير من بغداد وكان في أربعين مجلدا صعب على الأمير قراءته وفهمه باللغة العربية , وهكذا أراد أن يترجمه إلى الفارسية فجمع علماء ما وراء النّهر واستفتاهم في جواز ترجمة تفسير القرآن فأفتوه بذلك [23] . وعلى الرغم من كثرة التأليف باللغة الفارسية في العهد الغزنوي فإن حمّى التأليف باللغة العربية والترجمة منها إلى الفارسية ظلّت نشيطة , فقد ألف المؤرّخ العتبي (ت 428 هـ)" تاريخ اليميني " – نسبة إلى لقبه يمين الدولة – بالعربية لأهل العراق لما رآه من كثرة كتابات الأدباء باللغة الفارسية عن السلطان محمود الغزنوي . كما ألف البيروني (ت440 هـ) كتبا عديدة بالعربية والفارسية منها كتاب " التفهيم لأوايل صناعة التنجيم " الّذي عرّفه بالعربية وترجمه بالفارسية بناء على رغبة ريحانة بنت الحسين إحدى أميرات الخوارزميين .وكان البيروني شغوفا بالعربية حتى إنه كان يذكر إن السّبّ بالعربية أحلى موقعا من المدح بالفارسية [24] .

ومع ذلك , وعلى الرغم من تعصب السّلطان محمود الغزنوي للأدب العربي , لأنه كان سنّيا على حين كان حملة لواء الأدب الفارسي من الشّيعة , فقد فاز الأدب الفارسي بنصيب من عنايته وكسب كسبا لا يقوّم بثمن بلغ أوج ازدهاره مع تشجيع الوزير نظام الملك الطّوسي لمجالس العلماء والأدباء المأهولة في القرن الخامس الهجري الذّي دعّم الثّقافة الفارسيّة بأن بنى المدارس الحديثة التّي أخذت اسمه " النّظامية " في كل المدن الكبرى [25] والتي شرعت في تدريس الفارسية مع إبقائها للدراسات اللغوية والأدبية والعربية . إذن , لقد ساهمت السّياسة في تطوير الثّقافة الفارسية وذلك حينما ظهرت الدّويلات الفارسية مستقلّة في القطاع الفارسي وحمل لواء تطوير اللغة أمراء ووزراء تفانوا من أجل ذلك .

الهوامش

1. فارس هو إقليم واحد من أقاليم إيران الجنوبية لكنهم ساروا خطأ يقصدون به دولة إيران بأسرها. كي لي سترنج , بلدان الخلافة الشرقية , ترجمة بشير فرنسيس وآخرين, بيروت , ط2 , 1985 ص 283 .

2. تُعرف في المصادر العربية بدولة الأكاسرة , تأسست عام (226 ق.م) وانتهت على يد المسلمين في عام (651 م) . أحمد عطية الله ,القاموس الإسلامي , مكتبة النهضة المصرية , دت, ج3 , ص187 .

3. الطبري (أبو جعفر محمد بن جرير), تاريخ الأمم والملوك, دار القاموس الحديث بيروت, ج8, ص 106 .

4. محمد غنيمي هلال , مختارات من الشعر الفارسي , القاهرة , 1965 م , ص8.

5. ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد) , المقدمة , تونس , 1984 م , ص 457 .

6. وهي الأراضي التي تقع شمال نهر جيحون , وتسمى أيضا الهيطل وهو يعتبر الحد الفاصل بين الأقوام الناطقة بالفارسية والتركية , أي إيران وتوران . كي لي سترنج , ص 476 .

7. رضا زاده شفق , تاريخ الأدب الفارسي , ترجمة محمد موسى هنداوي , القاهرة , دت , ص 19 .

8. السباعي محمد السباعي في اللغة الفارسية وآدابها دار الثقافة القاهرة 1975 م , ص7.

9. محمد غنيمي هلال , ص 7 .

10. نظام الملك الطوسي , سياستْ نامه , ترجمة وتعليق محمد العزاوي , دار الرّائد , دت , ص 4 .

11. مجهول , تاريخ سيستان بتصحيح تقي بهار چاب , طهران 1352 هـ , ص 210.

12. سيستان وسمّتها المراجع العربية سيجستان وهي البلاد السهلية حول بحيرة زرّة وفي شرقها , يدخل فيها دلتا نهر هلـــدمنت عاصـــمتها زرنج كي لي سترنج , ص 372 .

13. إبراهيم باستاني باريزي , يعقوب بن الليث الصّفار , ترجمة محمد فتحي يوسف الرّيّس , دار الرّائد العربي , ص 119 .

14. نفس المرجع ص 120 .

15. محمد عوفي لباب الألباب باتصحيحات جديد كامل باكوشـــش سعيد نفيسي , طهران 1335 هـــ , ص 21 . أحمد الخولي , سيجستان بين العرب والفرس , دار حيراء , القاهرة , دت , ص 51 .

16. محمد أمان صافي , أفغانستان والأدب العربي عبر العصور , المكتبة السلفية ومطبعتها بالقاهرة , ط1 , 1988 م , ص 33 .

17. خاقان : لقب لملوك التّرك والصين فيه معنى العظمة والقدرة , عبد النعيم محمد حسنين , قاموس الفارسية , دار الكتاب الإســـلامية , ص 212 .

18. خراسان معناها بلاد الشرق , أو بلاد الشمس المشرقة , وهي مساحة واسعة تقع إلى شرق بلاد فارس , وتترامى إلى نهر جيحـــون , وهي مقسومة في الوقت الحاضر بين ثلاث دول , روسيا وأفغانســـتان و إيران , كي لي سترنج , ص 423 وما بعدها .

19. الطبري, ج8 , ص 234 , محمد نور الدّين عبـــد المـــنعم , دراسات في الشعر الفارسي حتى القرن الخامس الهجري , دار الثقافـــة للطّباعة والنّشر القارة , ص 16 .

20. علي أكبر فياض محاضرات عن الشعر الفارسي والحضـــارة الإسلامية في إيران , دت , ص 4 . محمد نور الـــدين عبـــد المـــنعم , ص17 .

21. ابراهيم باستاني باريزي , ص 12 .

22. أحمد مختار العبّادي , في التّاريخ العباسي والأندلسي , دار النهضة العربية , 1978م , ص 153 .

23. ابراهيم باستاني باريزي , ص 13 .

24. سياست نامه , ص 4 .

25. سياست نامه , ص 5 .